

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾

سلسلة أعظم القصص

تَوْبَةُ الْمُخْطِئِ



من بين كل المقامات، والتشريفات، والكرامات، والتفضيلات اختار الله عز وجل أن يفضل آدم -عليه السلام- بالعلم، وأن يكون هذا العلم سبباً من أسباب تكريمه حين أمر الملائكة بالسجود له، قال ابن كثير في تفسير ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾: "وذكر مقام العلم قبل مقام السجود؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، واختصاصه بعلم أسماء كل شيء دونهم". وقال القسطلاني: "لظهور أن الفضيلة والكمال إنما هي في العلم"، وهذا يدلّ على تفضيل آدم -عليه السلام- على الملائكة واصطفائه، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وفي صحيح البخاري (٤٤٧٦) باب / قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ -حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، (ح) وقال لي خليفة، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: "يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ..."، قال القرطبي: "فلم يبق شيء إلا وعلم سبحانه آدم اسمه بكل لغة، وذكره آدم -عليه السلام- للملائكة كما علمه. وبذلك ظهر فضله، وتبين قدره، وثبتت نبوته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجته، وامتثلت الملائكة الأمر لما رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر".

وعلى رفعة المقام الذي كان عليه آدم عليه السلام من العلم إلا أنه أخطأ بتصديقه للشيطان الذي زين له الخطأ حتى أوقعه زالماً، مستدرج إياه في ثلاثة مشاهد صورتها آيات القرآن:

◆ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] لما رأى إبليس مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صدقه أكد لهما بثلاث تأكيدات: أقسم بالله على صدقه، وحرف التوكيد "إن"، ولام القسم في ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّصِيحِينَ﴾ ، يقول الشيخ الشنقيطي: "إن آدم لما سمع إبليس يحلف بالله اعتقد من شدة تعظيمه لله أنه لا يمكن أن يحلف به أحد على الكذب فظن صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، فأنساه ذلك العهد بالنهي عن الشجرة".

◆ ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]: فخدعهما بغرور، يقال منه: ما زال فلان يدي فلانا بغرور، بمعنى: ما زال يخدعه بغرور ويكلمه بزخرف من القول باطل، ويؤمنيه، وفي لفظ "فَدَلَّاهُمَا" إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة نازلة؛ فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ فأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسياً.

◆ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ [البقرة: ٣٦]: من الزلة وهي الخطيئة أي: استزلهما وأوقعهما فيها، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، وكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ في قوله ﴿ذَاقَا﴾ يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرنا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة، وأن ما أخذهما فقط كان مجرد المذاق، ففتنه كلاهما إلى جسامة الأمر، فعاد آدم وزوجه إلى الله عز وجل معترفين، خاضعين، منكسرين ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] قال ابن جرير: وهي الكلمات التي أخبر عنه أنه قالها متنصلا بقيلها إلى ربه، معترفا بذنبه، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ فدعا بها لكي تكون عنوانا له ولأولاده على التوبة فتاب عليه فرجع عليه بالرحمة والقبول، وتجاوز عنه، يقول ابن القيم: ابتلي آدم بالذنب فاعترف وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب، وغفر له الذنب، وقبل منه المتاب، وفتح له من الرحمة والهداية كلُّ باب. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ في الجمع بين الاسمين وعد للتائب بالإحسان مع العفو.

فانظر إلى أثر التوبة الصادقة، والمفزع الخالص؛ فربنا عز وجل يفرح بتوبة عبده، ويقبل عليه برحمته الواسعة وفضله العظيم، قال الله: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ وَفَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢] اجتباؤه؛ أي: اصطفاؤه إياه، وهدايته له، قال الشيخ السعدي: "يسر له التوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته".

قال بعض المفسرين: "ولا بد أن نغتنم إلى قوله الحق: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ﴾ إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعياً لأنه بشر، يخطئ ويصيب، ويسهو ويغفل. ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبياً ورسولاً، وما دام قد صار نبياً ورسولاً فالعصمة تأتي له: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ وَفَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾. وقال الشيخ الشنقيطي: "ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة".